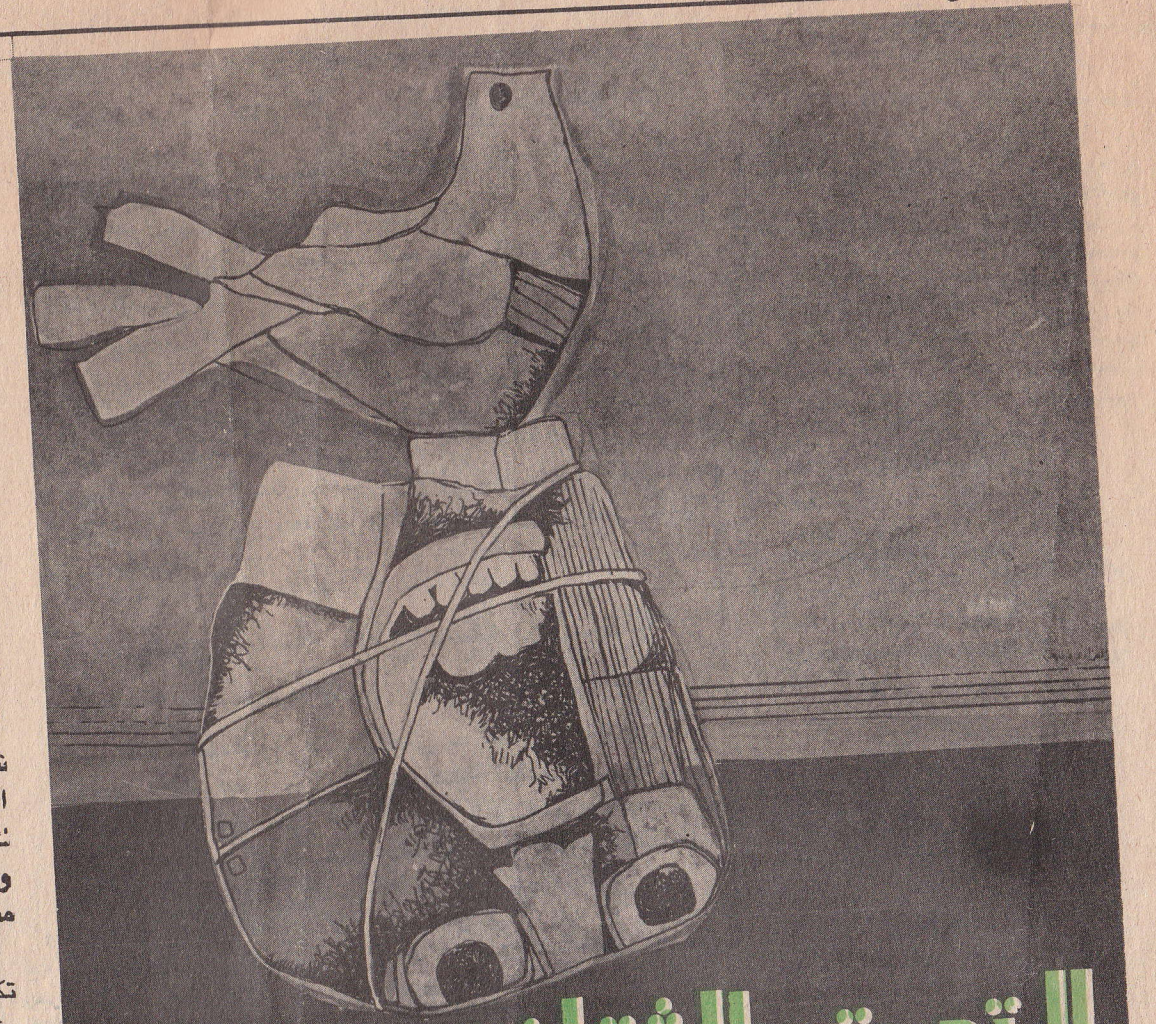

التجربة والثقافة وحرية التعبير

• حول معرض الفنان ضيـــاء العـــزاوي

/ بقلم : سهيل سامي نادر

توازن حاضره ويغنيه بحدوس عن الزمن والحضارة والامثولات الشعبية . لكن هذه العملية الخطيرة تتطلب (تنقية) مستمرة للوعي ، لانها في حقيقتها عملية تأسيس للموضوعية والروح التاريخي الذي ينوي فهم الحاضر ، واني ارى في هذه العملية شمولية تتجاوز الفن كمادة . انها مهمة وعي تاريخي للمكان . وعي يعد ويتوقع ويستعد لبناء منظومة مستقبلية .

ومعدات ضياء العزاوي لا تكفي هنا . انها تكفيه وحده وتقدم في مادة العمل الفني حدوسه الخاصة . ان الروح العاطفية للفنان ، وتفكك الفترة الزمنية بالنزاعات والمطالب ، وعدم وجود تيار ثقافي شامل ومتماسك كان يعيد وعي الفنان الممتاز بالازمة الى السطح التصويري ، ويحيل من ثم المشكلات التاريخية الى مشكلات تصميمية نسبيا . كان لديه المتحف العراقي ،

تظهر قدرا من الحياة النفسيه والمزاج ، خصوصا في عالمه اللوني الفاتن ، فان استغراقه المجرد بجمال الشكل المجرد ، وسكونية مفرداته قد منعا عليه ان يكون حرا تماما ازاء الشكل . ولقد عانى من ذلك كثيرا كما أرى ، فكان يطمح دوما الى تأسيس شكل جديد ، اكثر حرية واكثر تعبيرا . ولقد وجد هذه الحرية في التخطيط والرسوم التوضيحية الصغيرة ، بل وحتى في البوستر . قبل سنتين تقريبا حدث له ارتباك شديد . فحين اراد ان يطلق الطاقة التعبيرية الكامنة في عمله الفني وذلك في تفجير الشكل وتجريده من

يفتح الدكتور ضياء العزاوي موضوع ماضيه ـ كل تلك الاشكال الجميلة المحترسة من حريتها ـ على نوافذ جديدة · لقد اشتغل كثيرا بالاسرار وها هو يكتشف الانسان !

أسمي اثار اليوم بالبحث عن الحرية في التعبير ، وهذا البحث ، في الواقع ، ليس جديدا عند ضياء العزاوي ، لكنه لم يكن يعانيه · كان شرها في اقتناص اللذائذ ، وكان يائسا ، وكان مترعا بالبراعات والتصاميم وتنوع الاهتمامات ، لكنه كان لايني يبتعد عن التجربة الشخصية المباشرة الى الثقافة · ابتعاد متقن نسبيا ، اذ انه مبرر بالوضع الستيني كله · مبرر ايضا باليأس النزق ـ يأس المثقفين ·

لقد تميزت الستينات باضطراب الحياة الاجتماعية بارتباك التعاريف بالخوف وسقوط الكفالة الاجتماعية عن المثقفين بشكل كامل تقريبا · · لقد حصل المثقف من كل هذا على حرية مذهلة : حرية اليأس · فكان ان تحسس فردية بلا أصل ، طفت فجأة على سطح الحياة ، ونضجت بردود الفعل النفسية العشوائية وبوسائل الكتب والثقافة الجاهزة · لقد ظهر عندنا فن الخبرة الداخلية في الوقت الذي لم تستكمل فيه المعارف الخاصة بالواقع · وكان غريبا ، بالطبع ، ان لا يظهر هذا الفن في تلك الظروف · فاذ تلغم الطرق الى الخارج ، لا يعود المرء بمنجى الا في الرجوع الى مناطق آمنة · الداخل منطقة تسويف لكنها منطقة آمنة، وهذا الامر ينطبق على الماضي كذلك · ان الحياة الاجتماعية الضيقة التي لم تكن تسمح بتنوع التجارب الواقعية ، والاحساس بالحياة سمحت بتشويه هذه (الخبرة) بالذات ، وجعلت من الوعي يستنفد نفسه في الاستغراق بنفسه ، وليس غريبا ان قام شاكر حسن ال سعيد في تلك السنوات بصياغة (البيان التأملي) وحصره (الخبرة المعاشة) كما كان يسميها ، بالسطح التصويري · كان يبحث عن (الماهية) الروحية المرتبطة بالبحث عن الماضي ، في سياق موضوعته الفنية فيما يمكن تسميته (الشكل اللاشكلي) ، وعلى الجانب الاخر ، استطاعت رومانسية شبه ثورية ان تطور فنا بدا في تلك الايام مكتفيا بذاته ، فهو لم يبتعد عن المألوف والحسي والعياني ، برغم انه اكثر مفرداته واشكاله مستعارة اما من التاريخ القديم او من الفولكلور الشعبي ·

لقد قام هذا التيار بحركة التفاف ، فهو قد استبدل (الخبرة) الشخصية بواقع غير شخصي ، اي انه استبدلها بالثقافة · لقد استبدل معالم الواقع بواقع اخر يضج بالاسرار والمعالم الحضارية للماضي : هنا ، في هذه المنطقة بالذات ، نكتشف فن ضياء العزاوي ـ خليط ساحر من الاستعارات والغموض والجماليات المجردة ·

ان ضياء العزاوي مخلص ازاء مواقع فنه من الحضارة والتراث والفولكلور ، لقد اراد ان يستعيد خبرة ناس امتلكوا مرة زمام حياتهم او عاشوها بتطابق ، فكان ان اعاد انتاج هذه الخبرة في داخله على امل ان يسهم في

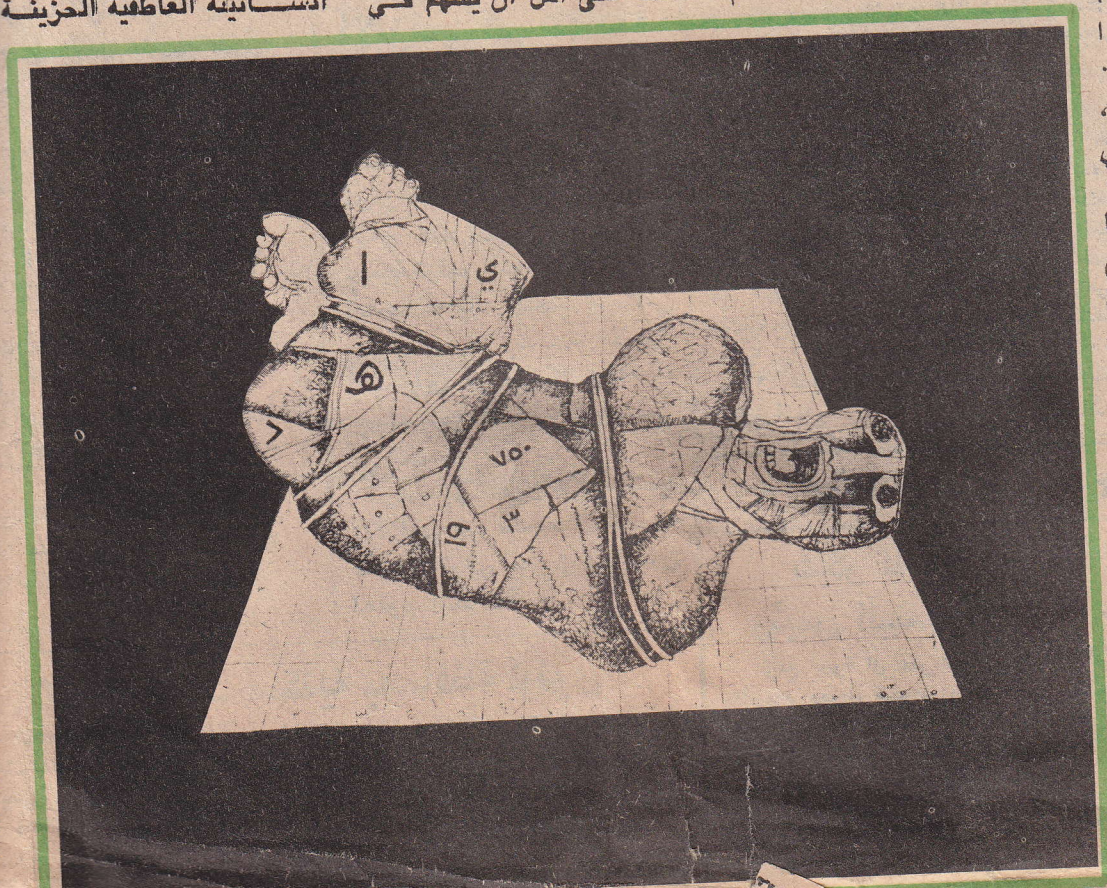

كان ضياء العزاوي ينسج من الاكف المقطوعة والرايات والكتابات والافكار القصصية الشعبية سجادات تفترش اللوحة وتخلق جوا عاطفيا ، الا ان نسيجه الرمزي هذا ما كان يشير كثيرا الى خارجه اي الى التاريخ ومشكلات الحياة والحساسية ازاء الوجود ، انما هو يقترن ، في الاكثر ، بمادة عمله الفني ذاته ، اي بكل تلك القطع ـ الاشكال ، التوضيبات وحركات الخطوط ، واذا كانت انشائيته العاطفية الحزينة

يفتح الدو ضياء العزاوي موضوع ماضيه – كل تلك الاشكال الجميلة المحترسة من حريتها – على نوافذ جديدة · لقد اشتغل كثيرا بالاسرار وها هو يكتشف الانسان !

ار اليوم بالبحث عن الحرية في التعبير ، وهذا البحث ، في الواقع ، ليس ضياء العزاوي ، لكنه لم يكن يعانيه · كان شرها في اقتناص اللذائذ ، ، وكان مترعا بالبراعات والتصاميم وتنوع الاهتمامات ، لكنه كان لايني تجربة الشخصية المباشرة الى الثقافة · ابتعاد متقن نسبيا ، اذ انه مبرد تيني كله · مبرر ايضا باليأس النزق – يأس المثقفين ·

زت الستينات ة الاجتماعية ب بالخوف الاجتماعية ل كامل تقريبا لثقف من كل ذهلة : حرية ن ان تحسس ، طفت فجأة اة ، ونضجت سية العشوائية والثقافة هر عندنا فن في الوقت الذي ارف الخاصة غريبا ، هر هذا طروف · ى الخارج ، ى الا في ق آمنة · ويف لكنها الامر ينطبق · ان الحياة التي لم التجارب س بالحياة ه (الخبرة) ن الوعي الاستغراق يا ان قام يد في ة (البيان (الخبرة يسميها ، · كان) الروحية الماضي ، الفنية

فيما يمكن تسميته (الشكل اللاشكلي) ، وعلى الجانب الاخر ، استطاعت رومانسية شبه ثورية ان تطور فنا بدا في تلك الايام مكتفيا بذاته ، فهو لم يبتعد عن المألوف والحسي والعياني ، برغم انه اكثر مفرداته واشكاله مستعارة اما من التاريخ القديم او من الفولكلور الشعبي ·

لقد قام هذا التيار بحركة التفاف ، فهو قد استبدل (الخبرة) الشخصية بواقع غير شخصي ، اي انه استبدلها بالثقافة · لقد استبدل معالم الواقع بواقع اخر يضج بالاسرار والمعالم الحضارية للماضي : هنا ، في هذه المنطقة بالذات ، نكتشف فن ضياء العزاوي – خليط ساحر من الاستعارات والغموض والجماليات المجردة ·

ان ضياء العزاوي مخلص ازاء مواقع فنه من الحضارة والتراث والفولكلور ، لقد اراد ان يستعيد خبرة ناس امتلكوا مرة زمام حياتهم او عاشوها بتطابق ، فكان ان اعاد انتاج هذه الخبرة في داخله على امل ان يسهم في واستغرق بشعور كثيف ولذيذ بأسرار التماثيل والعيون الفارغة التي لا قرار فيها والخرز والكتابات والنقوش والتمائم · ولم يكتف بذلك ، بل وسع نطاق (بحثه) الى الناتج الوطني الفولكلوري حيث عواطف الناس تمسك العالم بشروطها وتجمد لحظة الوعي في رمز مشترك ·

كان ضياء العزاوي ينسج من الاكف المقطوعة والرايات والكتابات والافكار القصصية الشعبية سجادات تفترش اللوحة وتخلق جوا عاطفيا ، الا ان نسيجه الرمزي هذا ما كان يشير كثيرا الى خارجه اي الى التاريخ ومشكلات الحياة والحساسية ازاء الوجود ، انما هو يقترن ، في الاكثر ، بمادة عمله الفني ذاته ، اي بكل تلك القطع – الاشكال ، التوضيبات وحركات الخطوط ، واذا كانت انشائيته العاطفية الحزينة يسقط في نزعة ايهامية شديدة الالتباس · كان الشكل الجديد تكوينا مجردا لا يوحي بشيء غير حركته المسرحية وتبديل موقعه من اللوحة ·

يبدو لي الان ان ضياء العزاوي قد قاد مشكلته الخاصة بالسطح التصويري الى النهاية في تلك التجربة · ولقد تجشم في هذه التجربة الموضوع السابق الذي واصل العزاوي تناوله طيلة عشر سنوات : لقد انتهت الاسرار وها هو العزاوي قد وصل الى مفترق طرق · ان البحث عن الحرية في التعبير ليس تجربة خاصة بالسطح التصويري فقط ، انها ايضا تجربة الفنان ازاء حياته وفنه ومستقبله ، تجربة تتم بين الناس وضمن عصرهم ومعارفهم وشكاويهم · وبرأيي ان الثقافة وحدها ، ككيان موضوعي مستقل ، كأسرار واشكال وعادات ، ليست مستودعا تقدر ان تجهز الفنان بمواد صلبة من تأريخها ·

× ×

لا ينسف العزاوي جسوره مع ماضي لوحاته · انه يستعيد كل عناصرها المثمرة القديمة ، لكنه يشيد نظاما تشكيليا اكثر حرية من ذي قبل · اكثر فاعلية للاقناع والتأثير · ان ميزة حسية غنية تكمن وراء هذه الاعمال الفنية الجديدة ، خبرة لم تؤد الى اعادة تعظيم الشكل فقط، بل وتنظيم الرؤية من جديد ايضا ·

ان لوحاته الجديدة تذكرني بلوحات فائق حسين ، فما ان ينتظم الشكل هنا حتى يشير الى حالة نفسية مستديمة هي خليط من رغبات مكبوتة ومرارة وشعور مأزوم بالحياة · واذ يميل فائق حسين الى فتح علاقات الشكل على الفراغ ، فـ